المناشئ التوحيدية عند السيد الإمام الخميني (قدس سره الشريف) في القضية الفلسطينية

■ هلال حسن علي اللواتي

إن منطلقات المرء لأجل أي قضية كانت لإثبات حق أو نفي ظلم تحت مظلة العدالة بقطع النظر عن أي ركن من أركانها الأربع لابد وأن تعتمد على أسس ومعايير ثابتة لا تقبل الخُلْف ولا التخلُّف، ومثل هذه المعايير لا تتوفر إلا إذا اعتمدت المعايير الوجودية التي تعرف أيضاً بالمعايير التكوينية.

والذي لا يعرف هذه المعايير التي يطرحها القرآن الكريم بعنوان «السنن الإلهية» فإنه سيجد صعوبة بالغة في التوفيق بينها وبين عالم الاعتبار الذي يعيشه أفراد البشرية في تعاملاتهم ومعاملاتهم السياسية والاقتصادية والتربوية والاستراتيجية والتكتيكية ... إلخ، إذ أن القوانين والشرائع البشرية التي تنشأ من نسيج اجتماعي تحكمه الذهنية المجتمعية بما لديها من العادات والتقاليد والاعتبارات يتخللها ضعف وخلل وفجوات من عدة جهات ومستويات، ولهذا نجدها متغيرة دائماً وابداً حتى في أسسها وبُناها التشريعية.

إلا أن ما يُعتمد على المعايير الوجودية التكوينية السنن الإلهية فإنه يكون غير قابل للتغير ولا للتبدل ولا للخُلف ولا للتخلف لأنه يستند على ما تكونت عليه الكائنات -ومنها الإنسان- وصممت عليه في أولى مراحلها التكوينية الصناعية الخَلقية، وبما أن هذه الصناعة الوجودية غير قابلة للتغير.. لا للخلف ولا للتخلف بأي نحو من الأنحاء فإن كل ما سوف يقع في دائرتها سيضطر الخضوع لأحكامها وتشريعاتها، وهناك مقولة في علم الكلام -القديم والحديث-، وهي أيضاً متداولة في البحوث الفقهية والأصولية وهي:»أن الاحكام تتبع المصالح والمفاسد»، وبالتتبع سنجدها تتبع -بصياغة علم النور والاحتياج الذاتي- المصالح والمفاسد التي تدور مدار التصميم الصناعية والخَلقي الذي تشكل عليه تكوين الإنسان والكائنات، وهو الذي يعبر عنه في بعض أبواب الفقه بالمصالح والمفاسد الواقعية.

وعلى هذا الأساس فإن البحث في أية قضية بغية الانتصار وتجنب الهزيمة فيها ضرورة أن تراجع أحكامهما وشرائطهما وموانعهما وأركانهما (كما هو معروف في تحقق العلة التامة: تحقق المقتضي، تحقق الشرط، ارتفاع المانع)، وبناء على النظرية القرآنية التي تعتمد في مبانيها وأسسها ومعاييرها الأحكام التكوينية الوجودية والتي تقوم على ذات مبادئ وأركان العلة التامة؛ فإن النصر الحقيقي لا يتحقق إلا بـ»التحقق بالتوحيد الخالص»، قال تعالى:» وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (آل عمران/١٢٦) «، ومن أراد هذا النصر أن يلبسه فعليه أن يتحقق بشرائطه وأن يرفع موانعه، قال تعالى:» وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء» (آل عمران/١٣)

والمانع الأساسي الذي يحجب النصر هو «حب الدنيا»، قال تعالى:» أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ» (البقرة/٨٦)، والآية ١٤٧ من سورة آل عمران جمعت أركان العلة التامة، قال تعالى:» وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»، ومرجع هذه المانعية إلى أعظم مانع لاستجلاب النصر الإلهي وهو الشرك، قال تعالى:»أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (الأعراف/١٩٧) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ»(الأعراف/١٩٢)، طبعاً والشركية لها مصاديق عديدة منها الاعتماد على العتاد والعدة والعدد، ويصدق أن يكون من هذه المصاديق الاعتماد على الاعلام وتسويقه، وكله مما يؤسف له قد أصبح الأداة الأساسية التي أصبح الكثير يعتمد عليه

وكأنه العلة التامة، وكأن له الاستقالية في التأثير، قال تعالى:» وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (الأعراف/١٩٧).

وهناك مصاديق أخرى للشركية ذكرها القرآن الكريم منها: الركون إلى الظالم، قال تعالى:» وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ» {هود/١١٣}، ومنها المعصية، قال تعالى:» فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ» (هود/٦٣).

مرتكزات بناء شخصية السيد الإمام الخميني رضوان الله عليه: الذي يراجع ما صدر من السيد الإمام(رض) من الكلمات والخطب والمواقف سيجده متمحوراً حول «التوحيد»، فهذا المنهج واضح وبارز في حياته وشخصيته، ومن هنا نجد أنفسنا أمام شخصية ترسم لها منهجها الخاص لدراستها، فمواقفه السياسية والنهضوية والتربوية والاقتصادية لا تنفك عن ذلك المحور الوجودي، وعندما نظر إلى القضية الفلسطينية فإنه نظر إليها من خلال هذا المنظار، وبمرتكزات ذلك المحور الوجودي، ترى ما فيه من السر؟!.

عندما تُبنى شخصية الإنسان المؤمن على بناء المنظومة الوجودية، وتتناسق مع ذراته حركاته وسكناته، وتتجانس مع تسبيح الكائنات، فهو يعني أننا أمام شخصية تتجاوز الفهم العرفي، تتعدى التحليل السياسي، إننا أمام مَن مِن الصعب فهمه لاختلاف الرؤى والأفق ضيقاً وسعاً وشمولية، فمن تخلق بأخلاق الله تعالى ينبغي أن يدرسه ويفهمه من هو من سنخ عالمه، وأما من ليس كذلك فإنه سوف سيقع في حيرة وخبط عشواء.

لننظر إلى بعض ما قام به رضوان الله عليه: عندما قام السيد الإمام(رض) بوصف أمريكا بالشيطان الأكبر فإنه لم يكن سوى من مفرزات علم الاخلاق وما تؤدي القوة الوهمية بالإنسان إلى دركات يصبح فيها هو الشيطان، ويصبح الشيطان تلميذاً عنده، وفي الحقيقة نجد السيد الإمام(رض) قد قدم بهذا الوصف مفتاحاً سيكلوجياً لفهم الطبيعة الشخصية لهذه الدولة، ولا أخفيكم الحقيقة أن هذا الأمر يستدعي الشفقة عليها وما أوصلت إليه نفسها، لأنها لا تعلم أنها قد أخرجت نفسها من دائرة الإنسانية بما أوصلت نفسها إلى ملكات الرذيلة غير الإنسانية فتملكتها القوة الوهمية، وهي قوةٌ كلُّ من يتحقق بها يصبح شيطاناً لما بينها وبينه من سنخية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعندما نظر السيد الإمام(رض) إلى الصهيونية وسياسة الماسونية وتاريخها أدرك أن كل من يتبناهما يصبح سرطاناً يمتد ويتوسع في غزوه إلى أن يقضي على كل مقومات الحياة في البدن الإنساني، فإما أن يصبحوا خولاً وإما أن يلقى بهم في بئر المنفى والضياع والحذف.

والعاقل عندما يجد السرطان بدأ بالحركة فإنه سوف يسعى لاستئصاله من أساسه، فإنَّ تَرْكَه يعني السماح له بالامتداد وأكل كل صالح في البدن، والنتيجة هي: القضاء على البدن برمته، فكان السيد الإمام(رض) ذلك العاقل المدرك لعواقب ومخاطر الغدة السرطانية في جسم الإنسانية.

فهذا الهم مع تلك الرؤية شكَّلا أساساً لنظرة خاصة إلى الواقع وما ستؤول إليه الأمور في قريب المستقبل، وقد أثبتت الأيام والشهور والسنون بأن هؤلاء يحملون روح الغزو والتوسعة بأطماع لا تسد جوعتها، يتمتعون بروح الفساد وقتل الإنسانية، وهذا الأمر طبيعي الحدوث ممن لا تملكه العاقلة، وتغلبه القوة الشهوية، وتسانده القوة الغضبية، وتخطط له القوة الوهمية، إن مثل هذا الإنسان إذا ما جاء على سدة الحكم سيقود الأمم إلى ذات المسلك، وهذا ما صنعته دول الاستكبار ومن باع حظه بالأرذل الأدنى أصبح مؤتمِراً بأمر الصهيونية، بل وصار منهم.

إن ما كان يملكه السيد الإمام(رض) من الغيرة على التوحيد الخالص قد وجده في الإمام السيد علي الخامنئي أعزه الله، فكان حقاً تالي تلو للسيد الإمام الخميني(رض)، وفي هذا كفاية فهم شخصيته المباركة.

مقومات النصر الإلهي: إن تحقق النصر غير كاف بتجهيز العتاد، ولا العدة، ولا بالعدد، فإن في معركة حنين خير عبرة، ولو تأملنا في جميع ما خاضه المسلمون من المعارك والحروب والغزوات سنجد وجود عنصر واحد في كل منها وهو: الاعتماد على الله تعالى، وهذا العنصر هو المقوم الاساسي للإنتصار، ومن ظن أن الإنتصار يمكن أن يتحقق من دون تخلل التوحيد والاعتماد على الله تعالى فإنه متوهم جداً، قال تعالى:» إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (آل عمران/١٦٠).

وهذا يدعو كل من يسير في درب تحقيق كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أن يتحقق بالتوحيد في وجوده بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وبتعبير آخر أن يتحقق بأسماء الله وصفاته.

حاجة النصر إلى التوحيد!!: لا يتوهم أن النصر يمكن تحقيقه كيفما اتفق، فإن السنن الإلهية اقتضت أن يكون للنصر حاجة إلى مقوم يقومه، وما كان هذا المقوم سوى من صميم احتياجات ذات النصر، وبتعبير آخر إنه احتياج تكويني وجودي، فالتوحيد والتحقق به ليس خياراً بدلياً بل هو الخيار المتعين الأوحد حسب متطلبات الاحتياج الذاتي التكويني والوجودي للنصر وللمنتصرين.

إن من لا يفهم العلاقة والرابطة بين سائر الكائنات وبين العوالم التي تحيط بالإنسان وبين ما يصدر من هذا الإنسان من سلوك فإنه لن يعي الكثير من الأحكام الشرعية فضلاً عن الأحكام الوجودية، وبالتالي لن يعي خطورة الغدة السرطانية وخطورة الشيطان الأكبر، وبتعبير آخر لن يعي خطورة هامان (إسرائيل) وفرعون (امريكا) وجنودهما من الأعراب والجهلة الاوروبيين والعرب وغيرهم.

إن من أهم النتائج والثمار التي تترتب فيمن يدخل إلى عوالم التوحيد الحقيقي يدرك أن الحق والحقوق ليس من مناشئ الاعتبار، بل من مناشئ التكوين والتصميم الصناعي للخلق وما يدور في فلك متعلقه، وسيدرك أن العدالة والحرية أيضاً كذلك، ودفاعه عن هذا الثلاثي: الحق، العدالة، الحرية هو دفاع عن

الإنسانية بما هي هي، إذ لا يمكن أن تتحقق الإنسانية في أي موقع إلا إذا تخللها التوحيد، فتأمل.

ختاماً: لابد من أن ندرك جيداً بأن النصر الإلهي مرهون بنصرتنا لله تعالى، قال تعالى:» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (محمد/٧} وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» (محمد/٨)، وقد يتساءل البعض عن كيفية نصرة الله تعالى!، الجواب هو: بنصر أحكامه ومعارفه، وبنصر أوليائه، وبنصر دينه وكتابه، وما تتمتع به الخلية السرطانية (الغدة من يعينها) من عناصر هتك التوحيد وأحكامه ومعارفه كاف في التصدي لها، وهذا هو العالم أمامنا اليوم إذ يشهد أن وراء كل انحراف للبشرية عن صراط الإنسانية صهيون وماسونية، واستمرارهم يعني: قال تعالى:» رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (نوح/٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (نوح/٢٧).

العباد بعين الله تعالى: ونصرة الله تعالى ليست باللسان فقط، أو بإراءة الناس مظهراً موحياً أنه من مظاهر النصرة لله تعالى ولكن في الواقع يكون الإنسان مخالفاً لأبسط تعاليم الله تعالى، فإن كل شيء مكشوف لله تعالى ولكل شيء ينتمي إليه سبحانه، ولهذا لن ستفاعل الوجود معه، بل بالعكس فإنه سوف يتحرك ضده حتماً وجزماً وهذا من السنن الإلهية، والتي تعرف بالسنن التاريخية والغيبية، قال تعالى:» وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (الحديد/٢٥)، واختم هذه المقالة بقوله تعالى:» أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ» (الملك/٢٠).